الحمام الزاجل بين البريد والأدب

د. عبد الله محمد أحمد*
مركز الدراسات الدبلوماسية – جامعة الخرطوم

المستخلص :

يتناول هذا المقال الحمام الزاجل عبر القرون واستخدامه في البريد وذكر الشعراء فتتحدث عن سرعته وحسن اهتدائه وتدريبه ونقله للأخبار وبطائق الحمام وأبراج الحمام ومطاراته، ثمَّ تتناول ذكره في الشعر العربي وحنينه للوطن والأليف والوكر، وقد ظلَّ الحمام الزاجل زماناً طويلاً رسولا مؤتمناً يطوي الشقَّة البعيدة ، ويحتمل المشقَّة الشديدة ويعرِّض نفسه للمخاطر ليحمل البريد، ويؤدِّي أمانته وإن كان لا يحمل تحت جناحه غير ما خطَّته أقلام كُتَّاب الدواوين وأقلام التجَّار، ثمَّ حمل في أخيلة الشعراء ما خطَّته أقلام العشاق.

كان الحمام الزاجل يؤدِّي في الزمان القديم ما يؤدِّيه البريد الجوي في العصر الحديث، فقد استطاع الإنسان تأليفَه وترويضه، واستطاع أن يُفيد مما زوَّده به الله تعالى من المعرفة، فللحيوان نصيب من المعرفة ولا ريب، وله إلمام تامٌّ ببيئته وكلِّ ما يلزمه من معرفة لحفظ الحياة وتوفير الغذاء لنفسه وصغاره، وللطير إلمامٌ بأجواء السماء، وما يعتريها من تغيُّر في الفصول المختلفة، ومعرفة بالمسافات والاتجاهات عجز العلم الحديث عن تفسيرها تفسيراً واضحا. ويتناول البحث جانباً من استخدام الإنسان للحمام الزاجل في البريد في الأعصر الإسلامية مع نماذج شعرية جاءت في وصف الحمام الزاجل وما ينقله من الأخبار.

ABSATRCT :

Homing pigeons had long been a preferential option long before and during the Middle Ages . Due to their homing ability , speed , and altitude . The earlist large scale communication network using pigeons as messengers was established in Syria and Persia about 5th Century BC. Much later in the 12th Century AD the city of Baghdad and all the main towns and cities in Syria and Egypt were linked by messages carried by pigeons. This was the sole source of communication. They were trained to return to their " Loft" or home ; they were taken to wherever and ereleased when a messege was to delivered , in a small cylinder that was attached to one of their legs. In Arabic literature pgeons and doves are utilized as aymbol of love and yearning. Arab poets made us travel with them, back and forth through space and time, in an emotional imaginary journey using the dove as a messenger between him and his beloved.

المقدمة:

الزاجل في اللغة:الزَّجْلُ: إِرْسالُ الحَمامِ الْهَادِي مِن مَزْجَلٍ بَعِيد[1]وهيَ حَمامُ الزَّاجِلِ والزَّجَّالِ، كشَدَّادٍ عن الفارسي، قالَ الشاعِر:

يا لَيْتَنا كُنَّا حَمَامَيْ زَاجِلِ[2]

لذا سمَّى حافظ إبراهيم صاحب البريد زاجلاً:

أطلَقوا الأُسطولَ في البَحرِ كَما يُطلِقُ الزاجِلُ في الجَوِّ الحَماما
فَمَضـــى غَيرَ بَعيـــدٍ وَاِنثَنى يَحمِلُ الأَنباءَ شُؤماً وَاِنهِزاما[3]

ويُسمَّى أيضاً بحمام المراسلة، وهو أشهر أنواع الحمام، إذ يتميَّز عن غيره من الحمام بأنه ينقل الرسائل، ويعود إلى موطنه، مهما بعُدت المسافة، ويطير مسافة ألف كيلو متر، ويطير بدون انقطاع، لمدة ثلاث عشرة ساعة، ويبلغ وزنه ستمائة وخمسين جراماً، ومنقاره عريض، مغطى بثنيات، وجسمه قوي، ممتلي ولونه أزرق، أو بني، أو أبيض، والجناح والأكتاف فاتحة اللون وطرفها مخطط باللون الأسود[4]

وقد زانها الله تعالى بطوق حول عنقها ويقال إنّ نوحاً عليه السلام لمّا كان في السفينة بعث الغراب ليكشف له هل ظهر من الأرض موضعٌ، فوقع على جيفة فلم يرجع إليه؛ فبعث بالحمامة، فاستعجلت على نوح الطّوق الذي في عنقها فجعل لها ذلك جُعلاً[5]. يقول الشاعر:

وقد هَاجَني صوتُ قُمْرِيةٍ هتوفِ العَشِيِّ طروبِ الضُّحَا

مُطَوَّقةٍ كُسِيَتْ حُلَّةً بدَعوةِ نوحٍ لها إذ دَعَا[6]

وقد جعل القمرية صنفاً من صنوف الحمام وهذا ما ذكره النويري في نهاية الأرب، ثم ذكر أن الطوق كان هبةً من الله تعالى لها بدعوة نوح عليه عليه السلام[7].

ومن أحسن ما قيل في هذا قول أبي العلاء:

وتَحْسُدُكِ البِيضُ الحَوالي قلادَةً بجيدِكِ فيها مِن شَذا المِسْكِ تِمثالُ

ظلَمْنَ وبَيْتِ اللهِ كمْ مِنْ قلائدٍ تُؤازِرُها سُورٌ لهُنّ وأحْجالُ[8]

فهو يُزري بالنساء ومبالغتهنَّ في اتخاذ الحلية والزينة كعادته، ويزعم أنهنَّ يحسدنَ الحمامة على طوقها رغم لبسهنّ الأسورةَ والحجال والقلائد، وهو يصف حمامةً بيضاء لها طوق أسود لذا شبَّه طوقها بالمسك والمسك أسود اللون.

طرق تربية الزاجل وتدريبه:

ويقول الجاحظ: اعلم أنَّ الحمامَ والطيرَ كلَّها لا يصلُح التَّغمير بهِ من البعْد، وهدايته على قدْر التعليم، وعلى قدر التوطين، فأوَّل ذلك أن يخرج إلى ظهر سطحٍ يعلو عليه، ويُنْصَبَ عليه علَمٌ يعرفُهُ، ويكونَ طيرانُه لا يجاوز مَحَلَّتُه، وأن يكون عَلَفُه بالغداة والعَشِيِّ، يُلقَى له فوقَ ذلك السَّطْح، قريباً من علَمِه المنصوبِ له، حتَّى يألفَ المكانَ ويتعَّودَ الرُّجوعَ إليه، ولكن ليَنْظُرْ مِنْ أيِّ شيء يتّخذ العلمَ؟ فإنّه لا ينبغي أنْ يكون أسودَ، ولا يكون شيئاً تراه من البُعْدِ أسود، وكلما كان أعظمَ كان أدلَّ.ولا ينبغي أن يطيِّره وزوجتَه معاً، ولكن يَنْتفُ أحدهُما ويطيِّر الآخر، ويُخرَجان إلى السَّطح جميعاً، ثمَّ يطيَّر الوافي الجناح؛ فإنّه ينازِع إلى زوجتِه، وإذا عرَف المكان، ودَارَ ورَجع، وألِفَ ذلك الموضع، ونبتَ ريشُ الآخَر، صُنع به كذلك. وأجود من ذلك أن يُخرَجا إلى السَّطْح وهما مقصوصان، حتّى يألفا ذلك الموضع، ثمَّ يطيَّرَ أحدُهُما قبلَ صاحبه، ويُصنَعَ بالثّاني كما صنع بالأوّل."[9] وذكر للجاحظ لهذا الخبر عن أفليمون يدلُّ على قدم استخدام الزاجل في نقل الأخبار، كما يدلُّ على معرفة القائمين على أمره بطرائق تدريبه وتعليمه

ولكن إبراهيم اليازجي كان أكثر تفصيلاً في بيان سائل التدريب والتعليم على إيصال الرسائل، قال:" فأول ما ينبغي صنعه أن يقطع الطعام بتَّةً عن الحمام المراد تأديبه واستخدامه في الرسائل حتى يأخذه حاقٌّ الجوع وعلامته أن ينتصب ريشه وتتقلَّص عنقه وحوصلته وحينئذ يُنقل إلى المكان المراد تعويده الذهابَ إليه بعدَ أن يُطرح له هناك حبٌّ كثير فإذا ملأت الحمام حواصلَها منه تُطرد منه حتى تعود إلى مكانها الأول، ثمَّ يُعادُ عليها ما فُعل أولاً فإذا أُطلقت ثانياً لم تُخطيء الطريق حتى قصد ذلك الموقع مألوفاً لها كلَّما دفعتها حاجة الجوع، وينبغي ان يكون

الموضع الذي تُطعمُ منه غرفةٌ خالية لا موانع فيها ولا قواطع ــ وهي كلُّ ما يقع عليه الطائرــ وليس فيها شيٌ مما يبعث عند الحمام الميل إلى صنع عشٍّ فيها واتخاذها موضع إقامة لأنّ المعروف في طبيعة الحمام أنّه نهم كسول، غير ميال إلى الخروج فإذا وجد فيها ما يوافقه وكان في طاقته أن يتردّد إليها هجر خليَّته شيئاً فشيئاً ، فألف الموضع الجديد ولذلك يجب طرده منها بعد الشبع طرداً عنيفاً، ثمَّ حبسه عنها إلى أن يبلغ منه الجوع ويضطره للخروج من موضعه طلباً للطعام، وأكثر ما يستعمل الحمام الزاجل في أوقات الحروب وآونة الحصار ، فتناط به الرسائل من الموضع المحصور إلى المكان الذي عوِّد الذهاب إليه في الخارج ، ثمَّ يعود إلى حيث كان بأجوبتها، ولذلك لا بدَّ أن يكونَ لكلِّ موضعٍ أُريدت المراسلة إليه حمامٌ مخصوص يتردّد بين الموضعين."[10]

وفي حديث اليازجي حول تعويده الحنين إلى الوكر لأجل الطعام نظرٌ فإنَّ الإنسان قد ألف ترويض الوحش والكواسر من الطيور وتأليفها فهل يشقُّ عليه ترويض الحمام مع إلفته للإنسان، وقد عقد الجاحظ باباً في أوجه الشبه بين الناس والحمام.[11] وقد سخَّر الله تعالى الكون وما فيه لأجل الإنسان، قال عزَّ وجلَّ ": "وسَخَّرَ لَكُمْ مَا في السَّمَوَاتِ وَمَا في الأَرْضِ جَميعاً مِنْهُ إِن فِي ذَلِك لآيَات لقوم يتفكرون "[12].

سرعة الحمام وحسن اهتدائه:

عُرف الحمام من قديم الزمان بحسن الاهتداء حتى قالت العرب:" أهدى من حمامة[13]، كما أن الحمام عُرِف بسرعة الطيران يقول الجاحظ " والحمامُ أشدُّ طيراناً من جميع سباع الطير، إلاَّ في انقضاض وانحدار، فإنَّ تلك تنحطُّ انحطاط الصخور و متى التقت أمَّةٌ من سباع الطَّير أوْ جُفالةٌ من بهائم الطير، أو طِرْنَ علَى عَرَقةٍ وخيطِ ممدود، فكلُّهَا يعتريها عند ذلك التَّقصير عما ما كانت عليه، إذا طارت في غير جماعة، ولن ترى جماعة طير أكثرَ طيراناً إذا كَثُرْنَ من الحمام، فإنّهُنّ كلما التفف وضاق موضعُهنَّ كان أشدّ لطيرانهنَّ، وقد ذكر ذلك النَّابغة الذُّبيانيُّ في قوله:

وَاحْكمْ كَحُكْمِ فَتَاةِ الحَيِّ إذ نَظَرتْ ... إلى حمـــامٍ شـــراعٍ واردِ الثَّمدِ
يحفُّـــه جانبـــا نيـــقٍ وتُتبعُـــهُ ... مثلُ الزُّجاجةِ لم تُكْحَلْ من الرَّمدِ
قالـــت: ألا لَيتما هذا الحمامُ لنا ... إلى حمامَتنـــا ونِصْفُـــــهُ فَقَـــدِ
فحسَبـــوه فألفَوه كما حَسَبَتْ ... تِسعًا وتسْعينَ لم تنقُصْ ولم تزِدِ
فكَمَّلـــت مائةً فيها حمامتُهـــا ... وأسْرَعَتْ حَسْبَةً في ذلك العَدَدِ

قال الأصمعيُّ: لما أراد مَديحَ الحاسب وسرعة إصابته، شدَّدَ الأمرَ وضيَّقه عليه، ليكون أحمدَ له إذا أصاب؛ فجعَلَهُ حَزَرَ طيراً، والطّيرُ أخفُّ من غيره، ثمَّ جعله حماماً والحمامُ أسرع الطّير، وأكثرُها اجتهاداً في السرعة إذا كثر عددهنَّ؛ وذلك أنّه يشتدُّ طيرانُهُ عند المسابقة والمنافسة، وقال: يحفّه جانبا نيقٍ ويتبعه، فأراد أنّ الحمام إذا كان في مضيقٍ من الهواء كان أسرعَ منه إذا اتّسع عليه الفضاء"[14] وأبيات النابغة إشارة إلى قصَّة زرقاء اليمامة التي اشتهرت بقوَّة الإبصار واستطاعت أن تعدُّ الحمام وهو طائر في الجوِّ وكان ستاً وستين حمامة.

: وقد وصفت العرب الحمام بسرعة الطيران، قال زهيرُ بن أبي سُلمى:

كأنَّهـــا من قَطـــا الأجباب حلَّأها ... وِردٌ وأفـــردَ عنهـــا أختَها الشرَكُ
أهوَى لهـــا أسفـــعُ الخدَّين مُطَّرقٌ ... ريشَ القوادم لمْ تُنصـــبْ له الشبكُ

دونَ السماءِ وفوقَ الأرضِ سبقُهما دون الذُّنابَــى فلا فَــوتٌ ولا دَرَكُ
حتـــى إذا ما هوَت كَفُّ الغلام لها طارت وفي يــدِه مــن ريشِها بِتَكُ[1]

يُشبّه فرسه في سُرعتها بقطاةٍ نزلت لترد الماء، فوجدت وَرَّادا حلَّؤوها عنه، ثم وقعت أختُها في الشرك، فأفزعها هذا وأسرعت في طيرانها، فانقضَّ عليها صقرٌ ، أراد أن يأخذها، ففرَّت منه
وهذا أسرعُ لطيرانِها، وأسفَّت في طيرانِها هرباً منه، فطمع فيها غلامٌ فمدَّ يده ليأخذها فأفلتت منه وفي يده بعض ريشها، فهذا عناءٌ بعدَ عناءٍ بعد عناءٍ بعد عناء

ويقول الجاحظ: "وقد يختلف الناس حول الذكر والأنثى وأيهما أصلح لأداء الأمانة، فبعضهم يرسل الأنثى ولكل نظر، أما الذين يختارون الذكر لحمل الكتب والرسائل يقولون هو أحنُّ إلى بيته لمكان أنثاه وهو أشــد مَتنــاً وأقوَى بدناً وأحسنُ اهتداء، وأما الذين يختارون الأنثى فيقولون: إنَّ الذكر إذا سافر وبعُد حنَّ إلى الإنــاث، وتاقــت نفسُه إليهنَّ فربما رأى أنثى في طريقه ومجيئه لا يصبر عنها فترك المسير ومال إلى قضاء وطره منها، وهدايتــه على قدر التعليم والتوطين."
نقله للأخبار:

واستخدام الطير في نقل البريد قديم وقد نزل به الوحي في قصة هدهد سليمان عليــه الســلام التــي ورد ذكرها في القرآن الكريم، والتي دلّت على حاجة الأنبياء والملوك والرؤساء للبريد، مع ما أكرمهم الله تعالى به مــن الوحي ، وقد كان لخبر الهدهد دلالة عظيمة إذ كان سبباً في اهتداء أمَّة من عبدة الأوثان إلى الهداية والإيمان بنبــيِّ الله سليمان عليه السلام مع عظمة ملكه الذي وهبه له الله تعالى بدعائه (ربِّ هبْ لي حكماً لا ينبغــي لأحــدٍ مــن بعدي إنَّك أنت الوهاب) [16] قال أبو الشيص في الهدهد:

لا تأمننَّ على سِرِّي وسِرِّكمُ غيري وغيْرك أو طيٍّ القراطيسِ
أو طائــر سأحَلِّيــهِ وأنعته ما زالَ صاحبَ تنقيرٍ وتدسيسِ
ســودٍ براثِنــه ميلٍ ذوائبُه صُفر حمالِقه في الحسنِ مَغمُوس
قد كان همَّ سليمانٌ ليذبحه لولا سِعايته في ملــك بلقيس[17]

وهذه إشارة إلى أن صاحب البريد يجب أن يكون مؤتمناً على الأسرار، ثم ذكر الهدهد الذي دلَّ سليمان عليه السلام إلى مملكة بلقيس وهي باليمن، وسليمان عليه السلام بالشام على بعد الشقَّة وهذا دالٌّ على قدرة هذا الطائر على قطع المسافات البعيدة واحتمال النصب، والاطِّلاع على أمور البلاد وأهلها ومدركاً لأحوال أهل الإيمان وأهل الشرك، وقد ابتعد حتى ظُنَّت به الظنون، وتربَّص به النبيُّ عليه السلام ريب المنون، وقد وصف الشاعر هيئته، والبرثن لما لم يكن من سباع الطير مثل الغراب والحمام[18] ، وقوله ميلٌ ذوائبه إشارة إلى التاج الذي على رأسه ولين الريش الذي فيه.

[1] ـ ديوان زهير بن أبي سُلمى المزني:

ينسب نقل الحمام للأخبار إلى ما قبل ميلاد المسيح عليه السلام وقد نقل الجاحظ حديث أفليمون عن ملك خاف على ملكه، فاستشار وزراءَه فأمروه بتقصِّي الأخبار عن أعمال البلاد قاصيها ودانيها، قال :" ... وأمَرهُم باتِّخاذ الحمام في بلاده وتَوطينِهنَّ، واتخذ أيضاً عندَ نفسه مِثلهنَّ، فرفَّعهن من غايَةٍ إلى غاية، فجعلَ هؤلاء يرسلون من بلاد صاحبهم، وجعل مَن عندَ الملِكِ يرسلون من بلاد الملك، وأمرهمْ بمكاتَبتِه بخبرِ كلِّ يوم، وتعليق الكتُب في أصولِ أجنحة الحمام، فصار لا يخفى عليه شيءٌ من أمره"[19]

استخدام الحمام في البريد في الإسلام:

كان البريد الذي أسسه الأمويون يعتمد على الخيل والجمال والبغال من مركز الخلافة وإليها مع اتساع رقعة الدولة الإسلامية وزيادة حروبها وفتوحاتها وكثرة الفتن الداخلية، وظهور الدويلات المنشقَّة، مع ازدياد مصادر الثروة وتنوِّعها وكثرة مؤسسات الدولة ودواوينها فكان لابد من إيجاد وسيلة أسرع لعمل ديوان البريد الذي يربط أطراف الدولة ببعضها وبالحاضرة. وقد تعددت وسائل البريد في العهد العباسي، فكانت من هذه الوسائل الخيل والبغال، والنار والدخان، والإشارة أو الأعلام (الرايات)

وكان من أهم هذه الوسائل وأوسعها انتشاراً الحمام الزاجل، ويقال إن أول استخدام للحمام الزاجل في حمل الرسائل كان في الموصل ثم مصر على عهد الفاطميين ثم العباسيين حيث قامت بين الإسكندرية في سوريا وبين مدينة بغداد مخابرات متواصلة بحمام يسمونه حمام حلب[20].

وقيل إن الخليفة المهدي ثالث خلفاء العباس هو أول من نظم استخدام الحمام في البريد ذلك في القرن الثامن الميلادي[21]، على أن أول وثيقة جاءت مصدِّقةً لهذا الموضوع كانت في عهد المعتصم وهو بمدينة سامراء حيث أرسلت له الطيور بخبر القبض على بابك الخرمي وفي ذلك يقول المسعودي: (وأطلق الطيور إلى المعتصم، وكتب إليه بالفتح، فلما وصل ضجَّ الناس بالتكبير، وعمهم الفرح، وأظهروا السرور وكتب إلى الأمصار بالفتح..) [22].

وخطا المسلمين خطوات واسعة في تنظيم البريد بواسطة الحمام الزاجل، في فتنة القرامطة وصراعهم مع الدولة العباسية حيث أدَّى الحمام في هذه الفترة دورا هاما، ويظهر أن مؤسس فرقة القرامطة في القرن الثالث الهجري كان أول من نظمه واستعمله على نطاق واسع، فجعل لنفسه من أول طيور تحمل إليه في مقره بالعراق أخباراً من جميع البلاد ليستعين بذلك على الشعوذة والإخبار بالغيب[23].

فيستخدم الحمام الزاجل وسيلةً لجلب الأخبار من أنصاره وجواسيسه وحين تأتيه الأخبار ينطق بها قبل أن يعرف بها الناس حوله فيحسبون أنه يعلم الغيب.

وفي القرن الرابع الهجري نجد أخباراً كثيرة عن استعمال الحمام بالعراق؛ فمن ذلك أنه لما تقلَّد حامد بن العباس الوزارة عام 304هـ – 916م ورُوسل بالقدوم على الخليفة كتب على عدة أطيار بخروجه في يومه[24].

وفي حوادث عام 311هـ – 923م دخل القرامطة البصرة وأخبروا الناس بعزل ابن الفرات وولاية حامد العباس قبل أن يجئ الخبر إلى البصرة بأربعة أيام، ولما جاء الخبر بعد ذلك لأهل البصرة علموا ما أرادت القرامطة بذلك، وأن الخبر أتاهم من وقته في جناح طائر، ولما قرب القرمطي من الأنبار تشوق المقتدر إلى معرفة أخباره، فلما عرف على بن مُقلة ذلك، طلب أطياراً أنفذها إلى الأنبار وكتب عليها أخبار القرمطي وقتاً بعد وقت[25].

وروى الزمخشري أنَّه لما وجه إبراهيم بن الأشتر إلى حرب عبيد الله بن زياد دفع إلى خاصته حماماً بيضاً ضخماً وقال: أن رأيتم الأمر عليكم فأرسلوها؛ وقال للناس: إني لأجد في محكم الكتاب، وفي اليقين والصواب، أن الله ممدُّكم بملائكة غضاب، تأتي في صور الحمام تحت السحاب؛ فلما كادت الدائرة تكون على أصحابه أرسل الحمام، فتصايح الناس: الملائكة الملائكة؛ فكروا حتى غلبوا، وقتل ابن زياد"[26].وفي سنة 321هـ استطاع ابن قرابة أن يحمل إلى الوزير ابن مقلة أخبار سلامة الكوفة من القرمطي، لأن أطيار جاره حملت إليه أنباءً أصدق مما حملته أطيار صاحب المعونة المعيَّن في الكوفة من قبل الخليفة، فتعجَّب ابن مقلة من أن يكون ابن قرابة أعرف بالأخبار من صاحب المعونة[27]"

لم يقتصر دور الحمام على حمل الرسائل فقط بل حمل ما لم يخطر على بال أحد، ففي زمن الفاطميين بمصر كان الاهتمام والعناية ببريد الحمام قد بلغت أوج قمتها، حيث كان الاهتمام بالحمام الزاجل لم يسبق له مثيل عندهم، ومما يدل على اعتمادهم عليه ما ذكر من أن العزيز ثاني خلفاء الفاطميين بمصر ذكر لوزيره يعقوب بن كلس أنه ما رأى القراصية البعلبكية، وأنه يجب أن يراها، وكان بدمشق حمام من مصر، وبمصر حمام من دمشق، فكتب الوزير رسالة يأمر فيها من هو تحت أمره بدمشق أن يوجه ما بها من الحمام المصري، ويعلق في كل طائر حبَّات من القارصية البعلبكية، ويرسلها إلى مصر ففعل ذلك، فلم يمض النهار حتى حضرت تلك الحمائم بما علق عليها من القراصية، فجمعه الوزير يعقوب بن كلس وذهب به إلى العزيز في يومه، فكان ذلك من أغرب الغرائب، وهذا يعطي دلالة واضحة على تطور بريد الحمام في الحضارة الإسلامية[28]

بطائق الحمام:

ذكر القلقشندي أن بالديار المصرية أبراجاً للحمام الرسائلي يحمل البطائق في أجنحته من مكان إلى مكان؛ منها برج بقلعة الجبل، وأبراج بطريق الشام بمدينة بلبيس، وأبراج بطريق الإسكندرية. وكان قبل ذلك يدرج إلى قوص، ومنها إلى أسوان وعيذاب ما يقطع ذلك الآن. وحمام برج ينقل منه في كل يوم إلى البرج الذي يليه ليطلب برجه الذي هو مستوطنه إذا أرسل، فإذا عرض أمر مهم أو ورد بريد أو غيره ممن يحتاج إلى مطالعة الأبواب السلطانية به إلى مكان من الأمكنة التي فيها برج من أبراج الحمام. وقد جرت العادة أن تكتب بطاقتان وتؤرَّخان بساعة كتابتهما من النهار، ويُعلَّق منها في جناح طائر من الحمال الرسائلي ويرسلان، ولا يكتفي بواحد لاحتمال أن يعرض له عارض يمنعه من الوصل إلى مقصده. فإذا وصل الطائر إلى البرج الذي وجه به إليه، أمسكه البرَّاج، وأخذ البطاقة من جناحه وعلقها بجناح طائر من حمام البرج الذي يليه، أي من المنقول إلى ذلك البرج، وعلى ذلك حتى ينتهي إلى برج القلعة فيأخذ البراج الطائر والبطاقة في جناحه ويحضره بين يدي الدوادار الكبير فيعرض عليه، فيضع البطاقة عن جناحه بيده: فإن كان الأمر الذي حضرت البطاقة بسببه خفيفاً لا يحتاج إلى مطالعة

السلطان به، استقل الدوادار به؛ وإن كان مهمًّا يحتاج إلى إعلام السلطان به، استدعى كاتب السر وطلع لقراءة البطاقة على السلطان كما يفعل في المكاتبات الواردة، وكذلك الحكم فيما يطرأ من المهمات بالأبواب السلطانية فإنه يوجه بالحمام من برج القلعة إلى الجهة المتعلقة بذلك المهم. وفي معنى ذلك كل نيابة من النيابات العظام بالممالك الشامية كدمشق، و حلب، وطرابس ونحوها مع ما تحتها من النيابات الصغار والولايات[29].

قلم الغبار:

ويسمَّى القلم الذي يكتب به في بطائق الحمام قلم الغبار، وسمي بذلك لدقَّته كأن النظر يضعف عن رؤيته كما يضعف عن رؤية الشيء عند ثوران الغبار وتغطيته له وهو الذي يكتب به في القطع الصغيرة من ورق الطير وغيره وبه تكتب بطائق الحمام التي تحمل على أجنحتها في ورق الطير، وبعضهم يسميه قلم الجناح لذلك[30].

وكان الإيجاز من أهم مميزات الرسائل التي ينقلها الحمام، فكان يستغنى فيها عن البسملة والمقدمات الطويلة والألقاب الكثيرة التي كانت تحفل بها الرسائل في ذلك العصر، ويكتفي بذكر التاريخ والساعة. وإيراد المطلوب في صيغة مقتضبة كالتي تستعمل في البرقيات.

وأكثر ما يحتاج الكاتب إليه في بطائق الحمام التاريخ، وأن يؤرِّخ بأجزاء اليوم والليلة، إذ إن كل واحدٍ من الليل والنهار اثنتا عشرة ساعة زمانية، تطول بطول أحدهما وتقصر بقصره، ولكل ساعةٍ منها اسم يخصها، كالشروق، وهو أول ساعات النهار، والغروب، وهو آخر ساعاته، والشفق، وهو أول ساعات الليل، والصباح، وهو آخر ساعاته. فينبغي للكاتب إذا كتب بطاقته من بطائق الحمام أن يكتب الساعة التي كتبت فيها من ساعات الليل، أما ساعات الليل، أما ساعات الليل فلا يتأتى فيها ذلك، لأن الحمام لا يسرح في الليل، اللهم إلا أن تدعو الضرورة إلى التاريخ بساعةٍ من ساعات الليل في بعض المكاتبات فيؤرَّخ بها[31].

أبراج الحمام أو مطاراته:

كان للبريد أبراج تعدُّ بمثابة المطارات في عصرنا هذا وقد سماها كثيرٌ من الكتاب بالمطارات، ويرجع الفضل الأكبر في ذلك إلى نور الدين محمود زنكي إذ وصل التراسل بالحمام الزاجل في عهده إلى مرتبة البريد الاعتيادي بنوع مستوفَى النظام من مراكز ومستخدمين حتى يقال إنه نظم خطًّاً لنقل البريد بين مصر والشام وأعد له مطارات ذات أبراج في كل ثلاثة عشر ميلاً وأقام لها نُظاراً وحُراساً يراقبون وصول الحمام نهاراً وليلاً خوفاً من أن يمرَّ عليهم وهم عنه غافلون[32] وإلى جانب هذا الخط أنشأ خطوطاً ثانوية أخرى منها:

1. الخط من قلعة الجبل (القاهرة) إلى الوجه القبلي (قوص وأسوان وعيذاب).
2. الخط من مطار قلعة الجبل إلى الإسكندرية وبه مطارات منوف العليا ودمنهور الوحش.
3. الخط من مطار قلعة الجبل إلى دمياط وبه مطاران بني عبيد وأشمون الرومان.

4. الخط من مطار قلعة الجبل إلى دمشق عن طريق غزة والقدس وبه مطارات عديدة.
5. الخط من مطار دمشق إلى برته على نهر الفرات.
6. الخط من مطار دمشق إلى بيروت وطرابلس.
7. الخط بين حلب والرحبة على الفرات.
8. الخط بين غزة والكرك على البحر الميت.
9. الخط بين دمشق وبعلبك.
10. الخط بين برتة وقيصرية[33]

ويلاحظ قرب المسافات بين المطارات وقد يؤدِّي هذا إلى تأخُّر الرسائل، لأن تسلَّم الرسالة من الحمامة وشدِّها إلى الأخرى يستغرق وقتاً، ولكنَّ ضياع الوقت لم يكن يذكر في شيء إلى جانب ما في هذه الطريقة من المزايا العظيمة، وأولها: أن قصر المسافة لم يكن يتطلَّب استخدام الحمام من النوع الزاجل الأصيل الذي يحتمل المشقَّة الشديدة، وهذا النوع يباع بالثمن الغالي، ولذلك استخدم الحمام العادي، إضافة إلى أن قصر المسافة يقلل الأخطار التي يستهدف لها الحمام.

اقتناء الحمام:

وقد اعتنى الناس بشأنه في القديم والحديث، واهتم بأمره الخلفاء، كالمهدي ثالث خلفاء بن العباس، والواثق، والناصر، وتنافس فيه رؤساء الناس بالعراق، لا سيما البصرة.

فقد ذكر ابن عبد المنعم الحميري أنهم تنافسوا في اقتنائها ولهجوا بها حتى بلغ ثمنُ الطائر منها سبعمائة دينار، قال: هذا ما حضرته ورأيته وشهدته، وقيل إنه بلغ بالبصرة لطائر منها جاء من خليج القسطنطينية ألف دينار، وكانت تباع البيضة من الطائر المشهور الذي قد أتاهم وأبوه من الغابة بعشرين دينار، وعندهم دفاتر بأنساب الحمام كأنساب العرب، وكان لا يمتنع الرجل الجليل ولا الفقيه ولا العدل من اتخاذ الحمام والمنافسة فيها والإخبار عنها والوصف لأمرها والنعت لمشهورها حتى وجه أهل البصرة بكار بن قتيبة البكراني قاضي مصر، وكان في فضله وعقله ودينه وورعه على ما لم يكن عليه قاض، بحمامات لهم على قوم ثقات كتبوا إليه يسألونه أن يتولى إرسالها بنفسه ففعل، وكان الحمام عندهم متجراً من التجارات لا يرون بذلك بأساً[34].

وقال الجاحظ:" في اختيار الحمام الجيد عن أفليمون: جِماع الفِرَاسةِ لاَ يَخرج من أربعة أوجه: أوّلها التقطيع، الثاني المجسَّة، والثالث الشمائل، والرابع الحركة.فالتقطيع: انتصاب العنق والخِلْقة، واستدارةُ الرأس من غير عِظَمٍ ولا صِغَر، مع عظم القرطمتين، واتِّساع المنخرين، وانهرات الشدقين وهذان مِنْ أعلامِ الكَرَم في الخيل؛ للاسترواحِ وغير ذلك، ثمّ حُسنُ خِلْقة العينين، وقِصر المنقار في غير دِقّة ثمَّ اتّساعُ الصّدرِ وامتلاءُ الجؤجؤ، وطولُ العُنق،

وإشراف المنكِبين، وطول القوادمِ في غير إفراط، ولحُوق بَعض الخوافي ببعض، وصلابة العَصَبِ في غير انتفاخٍ ولا يُبس واجتماعُ الخلْق في غير الجعودة والكَزَازَةِ، وعِظَمُ الفخذين، وقِصرَ الساقين والوظيفَين، وافتراق الأصابع، وقِصرَ الذَّنب وخِفَّته، من غير تَفْنين وتفرُّق، ثم تَوَقُّد الحَدَقتين، وصفاء اللَّون، فهذه أعلامُ الفِراسة وأمَّا أعلامُ المجسة، فَوثَاقةُ الخلْق، وشدَّة اللَّحم، ومَتانَة العَصَب، وصلاَبةُ القَصَب، ولينُ الرِّيش في غيرِ رِقّةٍ وصَلابَة المِنقارِ في غيرِ دقة.وأمَّا أعلامُ الشمائل، فقلَّة الاخْتيال، وصفاءُ البصر وثباتُ النَّظَر وشدّة الحَذر، وحسنُ التّلَفت، وقلَّةَ الرعْدةِ عنْدَ الفزع، وخفَّةُ النّهوض إذا طار، وَترْكُ المبادرةِ إذا لَقَطَ.وأمّا أعلام الحركةِ، فالطيران في علوٍّ، ومدُّ العُنق في سموٍّ، وقلة الاضطراب في جوِّ السماءِ..."[35]

ونقل عن الإمام الشافعي قوله في فضل الحمام الزاجل فقد قال: أعقل الطير هي التي تحمل الرسائل وربما زادت قيمة الطير منها على قيمة المملوك والعبد فإن الغرض الذي يحصل به لا يحصل بمملوك ولا حيوان لأنه يذهب ويرجع على مكانه من مسيرة ألف فرسخ فما دونها وتنتهي الأخبار والمقاصد التي تتعلق بها مهمات الممالك والدول ... من فضلها أيضاً ما والقيمون بأمرها بأنسابها اعتناء عظيماً فيفرقون بين ذكورها وإنائها وقت السفاد[1]، وتنقل الذكور عن إناثها إلى غيرها ويتعرَّفون صحة طرقها ومحلها، لا يأمنون أن تفسد الأنثى ذكراً، من عرض الحمام فتعتريها الهجنة. وإنهم لا يحافظون على أرحام نسائهم ويحتاطون لها كما يحفظون أرحام حمامهم ويحتاطون لها، ولهم في ذلك قواعد وطرق يعتنون بها غاية

الاعتناء بحيث إذا رأوا حماماً ساقطاً لم يخف عليهم حسبها ونسبها وبلدها، ويعظمون صاحب التجربة والمعرفة وتسمح أنفسهم بالخجل الوافر له[36].

الحمام الزاجل في الشعر:

كان للحمامة عامة نصيب وافر من الذكر في الشعر العربي، وافتنَّ الشعراء في وصفها حتى اشتهر حميد بن ثور بكثرة وصفه للحمامة، وأكثر ما وصفوه شجوها وحنينها ووفاءها ومن هذا قوله:

وَما هاجَ هَذا الشَّوقَ إِلا حَمامَةٌ دَعَت ساقَ حرّ تَرحَةً وَتَرَنُّما

تَطوَّقَ طوقاً لَم يَكُن عَن تَميمَةٍ وَلا ضربَ صَوّاغٍ بِكَفَّيهِ دِرهَماً

مُطَوَّقَةٌ خَطباءُ تَصدَحُ كُلَّمَا دَنا الصَّيفُ وانجالَ الرَّبيعُ فأَنجَما

فَلَم أَر مَحزوناً لَهُ مِثلُ صَوتِها وَلا عَربيّا شاقَهُ صَوتُ أَعجَما[37]

وكان للحمام البريد أيضاً نصيبَه من الذكر في الشعر ومن طريف الأمثل قول شوقي وقد جعل الحمامة من رسل سليمان على نبيِّنا وعليه الصلاة والسلام ، يقول:

كانَ اِبنُ داوُدٍ يُقَر ربُ في مَجالِسِهِ حَمامَه

خَدَمَتهُ عُمراً مِثلَما قَد شاءَ صِدقاً وَاِستِقامَه

فَمَضَت إِلى عُمّالِهِ يَوماً تُبَلِّغُهُم سَلامَه

وَالكُتبُ تَحتَ جَناحِها كُتِبَت لَها فيها الكَرامَه
فَأَرادَتِ الحَمقاءُ تَــعــ رِفُ مِن رَسائِلِهِ مَرامَه
عَمَــدَت لِأَوَّلِها وَكــا نَ إِلى خَلِيفَتِــهِ برامَه
فَرَأَتهُ يَأمُــرُ فيهِ عا مِلَــهُ بِتــاجٍ لِلحــَمامة
وَيَقولُ وَفّوها الرِعا يَةَ في الرَحيلِ وَفي الإِقامَه
وَيُشيرُ في الثاني بِأَن تُعطى رِياضاً في تِهامَه
وَأَتَت لِثالِثِها وَلَم تَستَحي أَن فضَّت خِتامَه
فَرَأَتهُ يَأمُرُ أَن تَكو نَ لَها عَلى الطَيرِ الزَعامَه
فَبَكَت لِذاكَ تَنَدُّماً هَيهاتَ لا تُجدي النَدامَه
وَأَتَت نَبِيَّ اللَهِ وَهــ يَ تَقولُ يا رَبِّ السَلامَه
قالَت فَقَدتُ الكُتبَ يا مَولايَ في أَرضِ اليَمامَه
لِتَسَرُّعــي لَمّــا أَتا نـي البازُ يَدفَعُــني أَمامَه
فَأَجابَ بَل جِئتِ الَّذي كادَت تَقومُ لَهُ القِيامَه
لَكِن كَفاكِ عُقوبَةً مَن خانَ خانَتهُ الكَرامه[38]

فذكر أنها كانت مقرَّبةً منه عليه السلام لأن صاحب البريد يكون من أجلِّ حاشية الملك ومن المقرَّبين ولا يُختار السفير إلا بعد تجربة وتمحيص، وذكر أنها خدمته عمراً طويلاً، فما عهدَ منها غيرَ الصدق والاستقامة، فحمَّلها يوماً رسائلَه، وذكر أنها كانت ثلاث رسائل، وكانت وجهتها الأولى رامة والثانية تهامة، وتهامة في الزمان القديم مكة شرَّفها الله تعالى أو الحجاز عامةً، والدليل على هذا قول المعري في اعتذراه عن أداء فريضة الحج:

قالوا كبرتَ ولم تقصدْ تهامةَ في وفود مشــيٍ ولا ركبــانِ أجمالِ
فقلتُ إني ضريرٌ والذين لهــم رأي رأوا غيرَ فرضٍ حجُّ أمثالي[39]

أما في العصر الحديث فهي تُطلق على ثلاث مناطق: وهي تهامة الحجاز، وتهامة عسير، وتهامة اليمن، وأظنُّ أن شوقي نظر إلى حديث أم زرع في قول الزوجة" زوجي كليل تهامة، لا حرَّ ولا قُرَّ، ولا مخافةَ ولا سآمة[40] أم هل ألجأته القافية إليها؟ ورامة موقع بالعقيق وقيل وراء القريتين في طريق البصرة إلى مكَّة، فكانت رحلتها من بلاد الشام إلى جزيرة العرب، ثمَّ ذكر أن الكتب تحتَ جناحِها وليس هذا بموضع لوضع الرسائل وإلا عاقها عن الطيران، ولكن عبارة" [تحت جناحها] كناية على الحرص كما توضع البيضة تحت الجناح فهي آمن ما تكون هناك،" ورغم طرافة القصيدة وسعة الخيال فيها إلا أنني عتبتُ على شوقي لأنَّه جعل الحمامة تخونُ الأمانة وهي موصوفة بالوفاء، فقد وصفتها الشعراء بالوفاء، قال أبو العلاء المعري يقول:

أبَنــاتِ الهَديلِ أَسْعِدْنَ أَوْ عِدْ نَ قَليــلَ العَزاءِ بالإِسْعَــادِ
إيه للّــهِ دَرّكُــنّ فأَنْتُنّ الــْـ لَوَاتــي تُحْسِنَّ حِفْظَ الوداد
ما نَسيتُنّ هالكاً في الأوانِ الــ خَالِ أَوْدَى مِنْ قَبلِ هُلْكِ إِيادِ[41]

وفي زعم العرب أنَّ الهديل جدٌّ أو ابنٌ للحمام هلك في الزمان الأول فما زلن يبكينه على تقادم العهد، أما وصفه لها بالحمق ففيه نظر منه إلى وصف الحمامة بالحمق عند العرب، فيقولون في المثل "أحمق من حمامة" ، وذلك أنها

تبيض على الأعواد، فربما وقع بيضها فانكسر"[42]، وقال عنها حميد بن ثور الهلالي:

بَنَت بَيتَهُ الخَرقاءُ وَهيَ رَفيقَةٌ بِهِ بَينَ أَعوادٍ بِعلياءَ مُعلَما[43]

ثمَّ رماها بعد ذلك بالكذب وادَّعائها الكاذب على الباز، وكيف يجرؤ الباز والطير من جنود سليمان عليه السلام على التعرُّض لرسوله، ولكنَّ شوقيًّا رحمه الله أطلق لخيالِه العِنان.وذكر شوقي لمكافأة الحمامة بالتاج يشي بنظرِه لقصة الهدهد في خبر بلقيس رضي الله عنها.

وكان الحمام الزاجل ينقل البشرى أو النعي والأخبار العاجلة لضمان سرعة وصوله ، يقول ابن رشيق لما جاءه نعيُ قاضي المحمدية طاهر بن عبد الله:

أما لئن صحَّ ما جاءَ البريــدُ به ليكثرنَّ مــن الباكيـــن أشياعي

ياشــؤمَ طائــرِ أخبارٍ مبرّحــةٍ يطير قلبي لها من بين أضلاعي

ما زلتُ أفزع من يأسٍ إلى طمعٍ حتـــى تربَّع يأسي فوق أطماعي

فاليوم أُنفقُ كنزَ العمرِ أجمعَه لما مضى واحــد الدنيا بإجماع[44]

أما قوله " لئن صحَّ" فهو أحد أمرين إما شكٌّ في الخبر لأن البريد ربَّما نقل الأخبار الكاذبة، أو لأنَّ أوَّل استقبال المصيبة عدم التصديق، ثمَّ بيَّن أنَّ البكاء عليه ليس بكاء فرد واحد" وما كان قيسٌ هلكُه هلكَ واحدٍ" ولا أجزم بأن قولَه "شؤم طائر أخبار" إشارة إلى الحمام الزاجل فربما رجع فيه إلى قول العرب طائر شؤم، فهم يقولون لكل من جرى عليهم بالشؤم هذا طائر شؤم أو أشأم، وفي قوله " أفزع من يأسٍ إلى طمعٍ" نظر لقول أبي الطيب" فزعتُ فيه بآمالي إلى الكذب"

وقال عرقلة الكلبي حسان بن نمير بن عجل من شعراء القرن السادس الهجري:

قَذَفَت بِنا أَيدي النَوى جوزَ الفَلا وَكَأَنَّها قَوسٌ وَنَحــنُ سِهامُ

لا تَبعَثَنَّ مَعَ الحَمــامِ رِسالــةً في القَلبِ مِنها لَوعَةٌ وَغَرامُ

فَالكُتُــبُ عِندَ العاشِقينَ كَأَنَّها مِمّا يُهَيِّــجُ وَالحَمــامُ حِمام[45]

وقد عجبتُ للشاعر كيف ينهى صاحبته عن مكاتبته وفي الرسائل تسلية وشفاء لما في الصدور، وأما البيت الأخير فما أراه إلا قد تتبُّع أبا تمَّام في قوله:

هنَّ الحَمامُ فإن كسرتَ عيافةً من حائهنَّ فإنهنَّ حِمام[46]

قال عبد الواحد بن فتوح الأندلسيّ يصف حماماً بسرعة الطيران والسّبق:

يجتــاب أوديــة السّحاب بخافق كالبــرق أومض في السّحاب فأبرقا

لو سابق الريــح الجنــوب لغايةٍ يومــاً لجــاءك مثلهــا أو أسبقــا

يستقرب الأرض البسيطة مذهباً والأفق ذا السّقــف الرفيعــة مرتقى
ويظلّ يسترقي السماء بخافــق في الجــوّ تحسبه الشّهــاب المحرقا
يبدو فيعجب مــن رأه لحسنه وتكــاد آيــة عنقــــه أن تنطـــقا
مترقرقاً من حيث درت كأنما لبــس الزجاجــة أو تجلبب زئبقاً[47]

قوله" يجتاب" يشير إلى تعرّضه للمهالك وخوف الصقر والصياد في طيرانه، و"خافق" يُشير إلى اجتهاده في الطيران وسرعته وقد شبَّه السحاب بالأرض إذ جعل له أودية، ثم شبَّهه في سرعته بالبرق فجعله أسرع من الضوء، ولا أدري لم عاد فشبهه بريح الجنوب وهي أبطأ من البرق، ولو قدَّم ذكر الريح وأخَّر ذكر البرق لكان أحسن، كما أنَّ ريح الجنوب غير محمودة، قال إسحاق الموصلي: "غنيت الواثق في شعر قلته وأنا عنده بسر من رأى وقد طال مقامي واشتقت إلى أهلي:

ياحبَّذا ريحُ الجنوبِ إذا بدتْ في الصبحِ وهي ضعيفةُ الأنفاسِ
قد حُمِّلتْ بردَ الندى وتحملَّت عَبَقــاً مــن الجثجاث والبَسباس

فاستحسنه وقال لي: يا أبا محمد، لو قلت مكان ياحبَّذا ريحُ الجنوب": يا حبَّذا ريحُ الشمال"، ألم يكن أرقَّ وأغذى وأصحَّ للأجساد، وأقلَّ وخامة وأطيب للأنفس![48]" ثمَّ جعل الشاعر الحمام يستقرب ما بعد من المسافات بسبب قوّته وسرعة طيرانه، وفي قوله "والأفق ذي السقف الرفيعة" إشارة إلى قوله تعالى " والسقف المرفوع"[49] ، أما قوله "استرقى" من رقيَ يرقَى فغريب، فالاسترقاء من الرقية ولم يُسمع من الرُّقيّ بمعنى الارتفاع ولم تذكره المعاجم، وهذا بعض ما تدور فيه الوغى بين المعجميين والشعراء. ثمَّ أشار إلى حُسنه جماله، والحمام موصوفٌ بالحسن، وخصَّ طوقَه بالذكر لأنَّه أشبه بالحلية. ثم ذكر الزئبق وهو معروف بصفاء اللون وأنه يترجرج فلا ثباتَ له وكذلك التماع ألوان ريشه في ضوء الشمس.

وقديما استخبرت العشاق الحمائم عن حال الأحبَّة، يقول ابن الزقاق البلنسي:

إيهٍ بعيشكِ يا حمامةُ خبِّري كيف الكثيبُ ورَنْدُهُ وعَرارُهُ
أَتَنَفّــسَت بتنفُّسي أَثْلاتُهُ أم أَيْنَعَــتْ بمدامعي أزهارُهُ[50]

فهو يستخبر الحمامة التي جاءت من نحو أرض الحبيب عن حال الأحبَّة وليس الكثيب والند والعرار هو المقصــود وإنما ذكره لإقامة المحبوب في ذلك المكان، وما ذكرت العربُ المكانَ في أشعارها لذاتِه، وإنما لارتباطه بالأحبــة، ومن تتبّع ذكر الأماكن في أشعار العرب تبيَّن له صدق هذا.

كما جعلوا الحمائم رسلاً إلى المحبوب، قال ربيعة الرقي"

حَمامَةُ بلِّغي عَنّــي سَلاما حَبيبــاً لا أُطيــقُ لَــهُ كَلاما
وقولي لِلَّتــي غَضِبَت علَينا عَلامَ وَفيمَ يا سَكنــي عَلاما
أحبُّ حديثَها وتُحبُّ قُربي ومـــــا إن نلتقــي إلا لِمــاما

فيا ليتَ الحمامَ مسخـــراتٌ لنُرسل في رسائلِنا الحمامـــا

لعلَّ حمامـــةً تُهـــدي إلينا كِتابـــاً منـــك نجعلُـــه إماما

وتبلغكِ المحبَّة من مُحبٍّ أحبَّـــكِ قلبُـــه يَفَعـــاً غلاما[51]

وإنما طلب من الحمامة تبليغ الرسالة لأمرين أولُّهما بعد المكان، وثانيهما لمعرفتها بتباريح الهوى في زعم الشعراء، ثم عاد إليه رُشده في عُسر مطلبه من الحمامة، فجعلَ ذلك أُمنية، وتمنَّى أن تأتيه الحمامة بكتاب من المحبوب، وقد نظر إلى القرآن الكريم في قولُه "تجعله إماما"، والإمام هو الكتاب كما جاء في تفسير قوله تعالى" وكلَّ شيءٍ أحصيناه في إمام مبين"[52] قيل أي في كتاب مُبين. ثمَّ تمنى أن تعود بالسلام إلى إلى الحبيب، وبيَّن أنَّ حبَّه لها كان من عهد الصبا وذلك أمكن ما يكون الحبّ. والشاعر عباسي المولد والنشأة ولا شكَّ أنه عارف بالبريد واستخدام الحمام فيه.

أما الشاعر المهجري إلياس فرحات فجعلها رسولاً إلى المحبوب وأوصاها ولقّنها ما تقول، وقصيدته مـــن أعـــذب الشعر وقد أوردتها كاملةً لجودتها:

يا عروسَ الروضِ ياذات الجناحْ ... يا حمامة

سافـــري مصحوبةً عند الصباحْ ... بالسلامة

واحملي شوق فؤادي ذي الجراحْ ... وهيامه

***

أسرعي من قبل يشتدَّ الهجير ... بالنـــزوحِ

واسبحي ما بين طيّات الأثير ... مثل روحي

وإذا لاح لك الروض النضير ... فاستـــريحي

***

رفرفي في روضة الأفق الجميْ ... في تأنٍّ

وانظري محبوبتي عند الأصيلْ ... ثمَّ غنِّي

فهيَ إنْ تسألكِ عن صبٍّ عليلْ ... كان عنِّي

***

خبِّريها أنَّ قلبَ المستهامْ ... ذابَ وجْدا

وصليها كيف ذياك الغرام ... صارَ صلْدا

وهياماً لم يعد فيها هيام ... بل تعدَّى

***

ذكِّريهـــا بأويقـــات اللقاء ... والتصابي

حين كُنّا كلَّ صبحٍ ومساء ... باقتـــراب

علَّ بالتذكار لي بعضَ الشفاء ... من عذابي

***

فإذا ما أظهرت حبَّاً ولينْ ... واشتياقا

فاجعلي ما بيننا عهداً مكينْ ... واتفاقـــا

وسليها رأيَها فيِّ أيِّ حين ... نتلاقى

***

وإذا أبدت جفـــاءً وصدودْ ... واعتسافا

فاتركيها إنَّها في ذا الوجودْ ... ستكـــافي

حينَ يأتيها زمـــانٌ فتريـــدْ ... وتجـــافى

***

وغداً إنْ أقبل الفصل المخيف ... برعودِهْ

ما الذي يبقى من الورد اللطيف غيرُ عودِه

إنَّ للحسنِ ربيعاً وخريف ... في وجودِهْ

وهي من أعذبِ الشعر الحديث وأرقِّه، استهلَّها أولاً بوصفين للحمامة فوصفهـــا أولا بعروس الروض لجمالِها، وثانياً بذات الجناح لسرعتها في الطيران، ثمَّ سمَّاها فبيَّن أنها حمامة بذكر اسم الجنس. وسألها بأن تبدأ رحلتَها في أوَّل البردين وهو الصباح إشفاقاً عليها ودعا لها بالسلامة فهي رسولٌ إلى المحبوب، وسألها أن تنقل شكواه وتباريح حُبِّه إليه.

ثمَّ حضَّها ثانيةً للتبكير وأن تعلو في طيرانها لتبلغ الأثير وذكر أن روحَه مصاحبةٌ لها.
فإذا وصلت إلى أرض المحبوب التي وصفها بالأُفق الجميل ويوافق وصولَها البردَ الآخر وهو الأصيل، ويتبيِّن من كلِّ هذا أن محبوبته في الشرق حيث موطنُه الأول إذ إن أُفقَ المَهجر الذي يُقيم فيه غائم ممطرٌ على الدوام، ولا مكان فيه للهجير، ولا سبيل إلى رؤية شفق الأصيل بجمالِه فيه، وسألها أن تتأنَّى في طيرانها حتى تبصرَ محبوبته، وأن تجعل آية خطابها الأولى غناءً لتهيجَ أشواقَها، فإذا خاطبتها أو ساءلتها أو ذكرت حبيباً فهو ذلك الحبيب. فتخبرها عندئذٍ بما جناه الحبُّ عليه، وأنه باقٍ على العهد، وأن حبَّه لها يزداد على الأيام، وتذكِّرها بعد هذا بعهود القاء وأويقاته، وما أجمل تصغير" أوقات" هاهنا، فهو يدلُّ على قِصَرِها، وكذلك قصرُ ليالي السعد. فإذا رقَّت له وتبيَّن أنها باقيةٌ على العهد، طلب منها أن تضرب له موعداً للوصل واللقاء، أمَّا إذا كانت قد نسيت العهد، فلتدعها ولتفارقها فإنها ستجازى هجراً بهجرٍ وجفاءً بجفاء، وبيَّن لها أن ربيع الحسن قصير، ولا بدَّ أن يأتي الخريف برعوده فتذوي أزهار الربيع ويذهب عَرفها. ويدلُّ هذا على أن الشاعر كان في عنفوان الشباب وسُكره، إذ ذكر أنه لا يُبالي بهجرها. وقد ذاعت قصيدة إلياس فرحات هذه ولهجت بها ألسنة المغنين لعذوبة لفظها ورقَّة معانيها، ومجيئها على بحر الرمل الذي يَصلح للغناء جعلها مطربةً للشجيِّ والخليّ.

الحمام الزاجل في النثر الفني:

لم تخلُ كُتب النثر أيضاً من ذكر الحمام الزاجل، وقال القاضي الفاضل عبد الرحيم البيسانيّ من رسالة يصف طائراً جاء من غاية: "وكان هذا الطائر أحد الرسل المسيّرة بل المبشّره، والجنود المجرّدة المسخّره؛ فإنها لا تزال أجنحتها تحمل من البطائق أجنحةً، وتجهّز من جيوش المقاصد والأقلام أسلحةً، وتحمل من الأخبار ما تحمل الضمائر، وتطوي الأرض إذا نشرت جناح الطائرُ، وتُزوي لها حتى ترى ما سيبلغه ملكُ هذه الأمَّة، وتقرب من السماء حتى ترى ما لا يبلغه وهم ولا همّه؛ وتكون مراكب للأغراض لمّا كانت الأجنحة قلوعاً، وتركب الجوّ بحراً يصفّق فيه هبوب الرياح موجاً مرفوعاً؛ وتعلّق الحاجات على أعجازها، فلا تعرف الإرادات غير إنجازها. ومن بلاغات البطائق استعارت ما هي به مشهورة من السّجع، ومن رياض كتبها ألفت الرياض فهي إليها دائمة الرّجع. وقد سكنت البروج فهي أنجم، وأعدّت في كنائنها فهي للحاجات أسهم. وقد كادت تكون ملائكةً فإذا نيطت بالرّقاع، صارت أولى أجنحةٍ مثنى وثلاث ورباع، وقد باعد الله بين أسفارها وقرّبها، وجعلها طيف اليقظة الذي صدقَ العين وما كذَبها، وقد أخذت عهود الأمانة فهي في أعناقها أطواقاً، فأدّتها من أذنابها أوراقاً، فصارت خوافي وراء الخوافي، وغطّت سرّها المودع بكتمانٍ سحبت عليه ذيول ريشها الضوافي، ترغم النّوى بتقريب العهود، وتكاد العيون تلاحظها كما تلاحظ أنجم السعود؛ فهي أنبياء الطير لكثرة ما تأتي به من الأنباء، وخطباؤها لأنها تقوم على منابر الأغصان مقام الخطباء[53]. وهذا من أحسن ما قيلَ في وصف الزاجل ويتضح من حديثه أن هذا الطائر جاء بالبشرى، وشبَّ الجو بما تصطخب فيه من رياح بالبحر الذي تتلاطم أمواجه، وشبَّه بروج الحمام ببروج السماء، وقوله تزوى لها الأرض إشارة لقوله عليه الصلاة والسلام:"زُويت لي الأرض فرأيتُ مشارقَها ومغاربَها وسيبلغ ملك أمَّتي ما زويَ لي منها[54]" وشبَّه أجنحتها بالقلاع وهي أشرعة السفن، ، وأحسبه نظر إلى قول عليٍّ كرَّم الله وجهه في وصف ذيل الطاؤوس" كأنَّه قِلعُ داريٍّ عنجه نوتيُّه"[55]، كما شبَّهها أيضاً بأجنحة الملائكة، ثمَّ وصف طوقها

بأنَّه عهدٌ بلزوم الوفاء وأداء الأمانة وكتمان السر. وشبَّهها بأنجم السعد لأنها تأتي بالبشرى، وأنجم السعد هي الكواكب التي يُقال لكلٍّ منها سعدُ كذا وهي عشرة أنجم[56].

وقد ظلَّ الحمام الزاجل زماناً طويلاً رسولا مؤتمناً يطوي الشقَّة البعيدة ، ويحتمل المشقَّة الشديدة ويعرِّض نفسه للمخاطر ليحمل البريد، ويؤدِّي أمانته وإن كان لا يحمل تحت جناحه غير ما خطَّته أقلام كُتَّاب الدواوين وأقلام التجَّار، ثمَّ حمل في أخيلة الشعراء ما خطَّته أقلام العشاق.

المراجع :

1) لسان العرب: زجل.
2) تاج العروس من جواهر القاموس، مرتضى الزبيدي.: زجل.
3) ديوان حافظ إبراهيم، ضبطه وصححه وشرحه ورتبه أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3 : 1987م: 381.
4) الموسوعة العربية الميسَّرة، دار الجيل ، بيروت، القاهرة، تونس، ط2، دت :1017/2.
5) لباب التأويل في معاني التنزيل لعلاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن (ت 741هـ). تصحيح محمد علي شاهين. دار الكتب العلمية – بيروت، ط1: 1415 هـ: 486/2.
6) رسالة الصاهل والشاحج، أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري، تحقيق د.عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، دار المعارف ط2: 1404ه- 1984م: 258.
7) نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب أحمد بن عبد الوهاب بن محمد النويري (ت:733هـ)،دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط1 :1423 هـ: 257/10 وما بعدها.
8) سقط الزند، أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت 1376ه-1957م :231
9) الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ، دار الكتب العلمية – بيروت، ط2: 1424هـ: 132/3 وما بعدها.
10) إبراهيم اليازجي، مجلَّة الضياء، السنة الأولى مصر 1898، مطبعة دار المعارف الفجالة مصر:13
11) الحيوان، الجاحظ، 83/3.
12) سورة الجاثية، الآية 13.
13) جمهرة الأمثال، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، دار الفكر – بيروت (د ت) 353/2.
14) الحيوان، الجاحظ: 107/3.
15) نفسه 108/3
16) سورة النمل الآية 27.

17) عيون الأخبار، عبد الله بن مسلم بن قتبة الدينوري، دار الكتب العلمية –بيروت 1418 هـ:101/1.
18) لسان العرب: برثن.
19) الحيوان، الجاحظ: 137/3.
20) التعريف بالمصطلح الشريف، القاضي شهاب الدين بن العمري مصر، حوش الشرقاي، 1312هـ : 58
21) نظام البريد في الدولة الإسلامية، نظير حسان سعداوي، دار مصر للطباعة، 1953م: 137
22) مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسين علي بن الحسين المسعودي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط5، 1973: 4:56.
23) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم ميتز، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة، مكتبة الخانجي القاهرة، 1967م: 422/2.
24) المصدر نفسه: 4/ 422.
25) الكامل في التاريخ: 40/7.
26) المستطرف من كلِّ فنٍّ مستظرف، محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي، عالم الكتب – بيروت ط1: 1419هـ، ص341.
27) الكامل في التاريخ: 81/7.
28) صبح الأعشى في صناعة الإنشا، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري، تحقيق عبد القادر زكار، وزارة الثقافة، دمشق: 1:153.
29) المصدر نفسه: 1:153.
30) المصدر نفسه241/6.
31) نظام البريد 137.
32) صبح الأعشى:14/ 337 ــ 339.
33) المصدر نفسه:104/2.
34) الروض المعطار في أخبار الأقطار، محمد عبد المنعم الحميري، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط2، 1984: 107.
35) الحيوان:131/3
36) شفاء العليل: شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي، تحقيق محمد بدر الدين الحلبي، دار الفكر، بيروت 71/1398:1.
37) ديون حميد بن ثور الهلالي، تحقيق عبد العزيز الميمني، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب 1371ه–1951م، نشر الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة 1384ه –1965م: 24 وما بعدها.
38) أحمد شوقي: الأعمال الشعرية الكاملة: دار العودة بيروت:1988م :المجلد الثاني، الشوقيات 4/.168
39) نكث الهميان في نكت العميان: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي: علق عليه ووضع حواشيه: مصطفى عبد القادر عطا: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان: ط🗁: 1428 هـ – 2007م: .84
40) صحيح البخاري: تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة ط🗁: 1422هـ: 27/7.

سقط الزند، أبو العلاء المعري: 8.

41) التذكرة الحمدونية، محمد بن الحسن بن علي بن حمدون، دار صادر، بيروت : ط: 1417هـ: 19/7.

42) ديوان حميد بن ثور الهلالي:تحقيق عبدالعزيز الميمني ، الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة ، 1965 ص ، 28.

43) الرواة على أنباه النحاة، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، المكتبة العنصرية، بيروت، ط1: 1424 هـ: 336/1.

44) ديوان عرقلة الكلبي، تحقيق أمد الجندي، دار صادر بيروت، 1992:75

45) ديوان أبي تمام ، شرح الخطيب التبريذي ، دار المعارف ، طبع بيروت 263 .

46) نهاية الأرب في فنون الأدب' شهاب الدين النويري 279/10.

47) ، معجم الأدباء، ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي: تحقيق إحسان عباس: دار الغرب الإسلامي، بيروت: ط 1: 1414 هـ - 1993م: 603/2.

48) سورة الطور: الآية 6

49)المغرب في حلى المغرب: أبو الحسن على بن موسى بن سعيد المغربي الأندلسي: تحقيق د. شوقي ضيف: دار المعارف – القاهرة: ط3:1955م :331/2.

50) طبقات الشعراء، عبد الله بن محمد المعتز بالله، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف – القاهرة: ط(د.ت) :164.

51) الآية أحصيناه (سورة يس : 12)

52) نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين النويري: 280/10.

53) حديث رقم 8620 ، موسوعة الحديث

54) نهج البلاغة: وهو مجموع ما اختاره الشريف الرضي من كلام سيدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب – رضي الله عنه– طبع المستقبل الرقمي (د.ت): 90.

55) لسان العرب: سعد.